الفصل الأول

الدين والمدنية

- الدين أساس المدنيات .
- أهمية الدين للحضارة .
- التربية الدينية حتمية وشاملة .
- الإسلام والمدنية الحديثة .
- عوامل انتشار الإسلام .
- منزلة العلماء فى الإسلام .
- النداءات العالمية .
- أثر الدين الإسلامى فى الإنجازات الحضارية .
- سمو التشريع الإسلامى .
- حضارة العرب فى الجاهلية .
- أثر الإسلام فى حضارة العرب .

الدين والمدنية

● الدين أساس المدنيات :

قال « هربرت سبنسر » [1] : « إن آداب الأمم وفضائلها ، التى هى قوام مدنيتها مستندة كلها إلى الدين ، وقائمة على أساسه ، وإن بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين ، وبناءها على أساس العلم والعقل . وإن الأمم التى يجرى فيها هذا التحويل ، لا بد أن تقع - فى طور التحويل - فى فوضى أدبية لا تعرف عاقبتها ، ولا يُحدَّد ضررها » .

وقال للإمام محمد عبده فى حديث له معه : « إن الفضيلة قد اعتلّت فى الأمة الإنكليزية وضعفت فى هذه السنين الأخيرة ، من حيث قوى فيها الطمع المادى » .

ونحن نعلم أن الأمة الإنجليزية من أشد أمم أوروبا تمسكاً بالدين ، مع كون مدنيتها أثبت وتقدمها أعم ، لأن الدين قوام المدنية بما فيه من روح الفضائل والآداب .

على أن المدنية الأوروبية بعيدة عن روح الديانة المسيحية وهو الزهد فى المال والسلطان ، وزينة الدنيا . فلولا غلبة بعض آداب الإنجيل على تلك الأمم لأسرفوا فى مدينتهم المادية إسرافاً غير مقترن بشىء من البر وعمل الخير ، وإذن لبادت مدنيتهم سريعاً .

ومَن يقل : إنه سيكون أبعدها عن الدين أقربها إلى السقوط والهلاك لا يكون مفتاتاً فى الحكم ولا بعيداً عن قواعد علم الاجتماع .

وقال « چوستاف لوبون » : إن أهم عناصر الحضارة العربية الإسلامية هى الدين واللغة والعلوم . وكلها لا تزال حية إلى اليوم .

ثم قال : ولا شك أن العرب هم أول مَن علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

* * *

---

(١) المنار : الجزء ١١ - المجلد ١٢ - ص ٨٠٥ - ٨٠٦

أهمية الدين للحضارة

تحدث « ول ديورانت » عن إيطاليا بعد ما سقطت تحت أقدام القوط فى الحرب القوطية (٥٣٦ - ٥٥٣ م) .

واضطربت الحال الاقتصادية وحلّت بها الفوضى وتدهورت النظم السياسية ، ولم يبق فى روما نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثى الإمبراطورية يؤيدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيدون عنهم لا يتقاضون مرتباتهم . ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذى عينين ، وللأباطرة أنفسهم أن لا حياة للدولة إلا ببقاء النظام الدينى . ولهذا أصدر « چستنيان » فى عام ٥٥٤ م ، مرسوماً يطلب فيه أن يختار الأساقفة والرجال المشهورون فى كل ولاية الأشخاص اللائقين الصالحين لتصريف شئون الحكومة المحلية [١] .

ويؤكد « برديف » أنه : « لا يمكن أن يقوم المجتمع الكامل ، وأن تستوى الثقافة الكاملة بدون حياة روحية حقيقية أى بدون انبعاث دينى » [٢] .

* *

● التربية الدينية حتمية وشاملة :

ثبت أن التربية الغربية لا زالت تتعثر فى طريق بناء الشخصية السوية ، لأنها تخاطب العقل ولا تخاطب الفطرة ، كما تبين الاحتياج إلى التربية الدينية التى تحرك الأحاسيس والمشاعر من داخل الإنسان فيقوم على أساسها سلوك مستقيم ، كما فى حديث الرسول ﷺ عن القلب : « ألا وإنَّ فى الجسد مضغة

---

(١) قصة الحضارة : ٣٤٢/٤

(٢) الإسلام وتحديات العصر - الطبعة الثانية - ص ١٤١

إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » - وكما فى الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

وفى هذا يقول العالِم التربوى الحُجَّة فى هذا التخصص « چيمس دوس » : « إن الدين شىء يؤثر قبل كل شىء فى هذا الشعور والإرادة ، وفى الوجدان والنزوع » .

ثم يتحدث عن عزل التربية الدينية فى المدارس عن باقى المواد ، وجعلها مادة أكاديمية فيقول : « إن من السخرية حقاً أن نضع فى الجدول المدرسىً مادة اسمها الدين ، ثم نغمض أعيننا فى اطمئنان ، ونروح فى سبات عميق ، كأننا قد أدينا مهمتنا ، لا ينبغى أن نقنع بأن يكون الدين مادة إلى جانب المواد الأخرى ، بل أن يكون روحاً فيّاضة فى قوة وتوثب ، يطبع المنهج كله ، والحياة المدرسية ، والعمل المدرسى بجميع جوانبه ومجالاته ، بحيث تتهيأ الفرص الطبيعية المواتية لتلاميذنا حتى يشبوا وهم يقدمون خضوعهم وولائهم للّه من تلقاء أنفسهم . وعن طيب خاطر » (٢) .

* * *

(١) الرعد : ١١

(٢) الدكتور عجيل النشمى : مقال التربية والفطرة - القبس : ١٩٨٥/٣/١٩

الإسلام والمدنية الحديثة [1]

إنى اخترت موضوع البحث فى الإسلام لأول مرة فى مؤتمر إفريقيا الشمالية لسببين :

الأول : إن المسألة الإسلامية هى مركز دائرة جميع المسائل فى إفريقيا الشمالية وذلك لأن هذه المسألة مهمة فى إفريقيا أكثر منها فى البلاد الإسلامية الأخرى ، إذ كان بين الإسلام والنصرانية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط نضال قديم ، وما زال أثره باقياً فى القلوب .

والثانى : لأننا نحن الفرنسيين نعيش مع المسلمين فى تونس والجزائر ونحن مضطرون إلى الاختلاط بأهلهما لارتباطنا معهم بمصالح دائمة . ويجب أن نضيف إلى هذا الاعتبار اعتباراً آخر أكبر منه شأناً وأعم فائدة وهو أن ظنون الغربيين بالأمم الأخرى قد بدأت تتغير تماماً ، وأذكر أننى كنت أسمع وأنا يافع أن الأمم الآسيوية لا تقوم لها قائمة ، وأنها ستبقى رازحة تحت أعباء الانحطاط والجمود ، وفى الغالب كانوا يلصقون التهمتين معاً بها ، على ما فيهما من التناقض ، إذ حينما توجد حركة تأخر لا بد وأن تتبعها حركة تقدم . وقد كان من الأمور التى لا نزاع فيها أن الصين أمة جامدة وأن اليابان أمة ليس لها إلا مدنية سطحية وأن الهند لا يمكن أن تصلح شئونها ، وكانوا يتهمون الإسلام بهذه التهم نفسها ، وإن الذين هم فى سن موافقة يذكرون أن الغربيين كانوا يرددون نظ ـة مؤداها أن المسلمين فى جمود تام بسبب اعتقادهم فى التوكل والقضاء والقدَر ، ولست فى حاجة إلى القول بأن هذه التهم التى كانت تجسمها

---

(١) خطبة لمسيو « رينيه ميوليه » ألقاها فى مؤتمر إفريقيا الشمالية المنعقد فى باريس من عهد قريب ، ونشرت فى المجلة الاستعمارية الفرنسية وترجمتها بعض الجرائد المصرية بالعربية فآثرنا تلخيصها لقراء المنار لما فيها من الحقائق والإنصاف .

كبرياء الغربيين ، قد تبين فسادها ، فإن المدافع التى أطلقت فى « موكدن » دوت فى أقاصى آسيا ، وأصبحت الأمم التى كنا حكمنا عليها بالموت ، والجمود يقظة نامية ، سواء أكانت فى الصين أو الهند الصينية أو الهند الإنكليزية أو فى إيران التى أخذ أهلها يطلبون دستوراً ، وها هى الآستانة ظهرت فيها حركة أهلية أدهشت العالم بأجمعه ، وما كان يخطر ببال طلبة مدرسة العلوم السياسية أنه سيطرأ تغيير على برنامج دراستهم ، وهو الأمر الذى أصبح لا بد منه الآن بعد أن تغيرت المسألة الشرقية ودخلت فى طور جديد .

وإننا إزاء هذا الانقلاب الذى حصل لا نجد بُدّاً من التساؤل عن الجمود الذى وصفوا به الإسلام ، إذ قد يكون شبيهاً بتهمة الخمول التى ألصقوها باليابان وما لبثت أن اضمحلت وظهر بطلانها !!

وإنى لا أريد أن أذكر انتشار الإسلام ، لأنه هو الدين الوحيد الذى ينتشر ويزداد أهله بسرعة فى آسيا وإفريقيا ، على حين أن الأديان الأخرى بقيت واقفة عند حد محدود لا تتجاوزه البتة ، وقد أصبحت هذه المسألة لا نزاع فيها ، ولكن ماذا تقولون إذا أثبتُّ لكم أن الإسلام شرعٌ يطبق العلوم الحديثة ويستفيد منها ؟ ومن ذلك أنه أنشأ بقوته الذاتية وبالمهندسين المسلمين ذلك الخط الحديدى العظيم الممتد بين دمشق والمدينة المنورة الذى يبلغ طوله ١٣٠٠ كيلو متر !!

وماذا يقول اليوم فطاحل الفلاسفة الذين قالوا : إن أهل الإسلام مصابون بنوع مخصوص من أنواع مرض النوم ؟ ماذا يقولون الآن إذا علموا أن المسلمين تبرعوا بمقدار ثمانين مليوناً من الفرنكات مما أنفق عليه ؟

ثم للتقريب بيننا وبين المسلمين طريقتان :

١ - الطريقة المباشرة :

علينا أن نفتح القرآن وكتب السُنّة ونستخلص منهما النصوص التى تثبت أن المؤمنين الصادقين فى كل عصر يهشون للعلوم ويقبلون عليها . منذ عهد غير

بعيد جاءنى كتاب من أحد المسلمين الجزائريين وهو السيد « عبد السلام ابن شعيب » فرأيت فيه بعض تلك النصوص مثل : « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنّى وجدها » و « اطلبوا العلم ولو بالصين » وغير ذلك من الآيات والأحاديث والآثار .

هذه الطريقة تصلح لإقناع قومنا بأن الإسلام يحث على العلم ، ولكن هناك عقبتين تقفان فى سبيل نجاحها :

الأولى : أننى وزملائى الذين يدافعون عن الإسلام لسنا بحُجَّة فى تفسير الآيات والأحاديث واستخلاص المبادىء الإسلامية الصحيحة منها .

والثانية : أن المتدينين لا يتبعون دائماً ما ترمى إليه نصوص دينهم ، بل كثيراً ما يحيدون عنها ويأخذون بأقوال الفقهاء والشرّاح الذين يذهبون فى أقوالهم كل مذهب ، فلا يكفى أن ينص الدين على شرف العلم ليكون أبناء ذلك الدين راغبين فيه مقبلين على تحصيله .

٢ - الطريقة التاريخية :

وهناك طريقة أخرى وهى الطريقة التاريخية ..

فى اعتقادى أن خطأ المشتغلين منا بالإسلام هو فى درس هذا الدين مستقلاً عن الظروف التى كانت محيطة بظهوره ، فلو عرفنا كيف كانت حال العالَم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش .

*

• عوامل انتشار الإسلام :

قال « رينيه ميوليه » : « إن الذى ساعد الإسلام على الانتشار هو ما قرره الإمبراطور « بيزانطين » فى القرن الثالث للمسيح من جعل المسيحية دين الحكومة ، وقد جرّ هذا القرار على الدولة البيزنطية من المشاكل أعقدها .

ولقد كان الدين الرومانى القديم دين حكومة أيضاً ، ولكنه كان ديناً يبتلع الديانات الأخرى ، بمعنى أن روما كانت كلما تغلبت على أمة جعلت آلهتها آلهة

لروما . وبخلاف ذلك كانت الحال فى بيزنطية ، ومنذ اليوم الذى استخدم فيه الإمبراطور السيف لنشر الدين انفتح فى وجه الدولة البيزنطية باب الآلام والهموم .

ولو أعدتم النظر فى تاريخ القرن الرابع والخامس والسادس للمسيح لوجدتم الأباطرة متوفرين على توحيد الدين وموجهين إليه كل قوى الدولة ، وفى ذلك كان تقعقع ملكهم وانقراضه . فكم أهرقت دماء فى سبيل كل عقيدة من عقائد المسيحية ، وكم من مقاطعة ضيّعها الإمبراطور على إثر كل قرار كان يصدر من مجمع « نيقية » !!

وإن مسألة طبيعة المسيح ، أو مسألة الأقانيم التى نعتقدها الآن بكل سكينة واطمئنان ، قد سالت من أجلها دماء غزيرة ، ونشأت من الجدال فيها حروب هائلة . هذا .. وإنه قد بلغ من عناية الحكومة بنشر الدين أنها غفلت عن احتياجاتها الأولية ، فاحترمت الصوامع ، ورفعت عن أهلها الخدمة العسكرية ، وعافتهم من دفع الضرائب ، فلم يكد يدخل القرن السادس حتى كانت الدولة فى غاية الضعف وملئت جوانبها بالخلافات الدينية .

* التوحيد وأثره فى الإسلام :

إذاً فما هو الإسلام ؟ الإسلام دين جاء بخلاف كل ذلك .

فقد اعتاض عن تعدد درجات الإدارة بسلطة واحدة يرجع إليها الحل والعقد فى كل الأمور .

ولم يقرر شيئاً من وساطة القسيسين بين الآلهة والشعب .

ولم يسن نظام الصوامع ، وقضى على عادة العزوبة التى كانت متبعة مستفيضة بين المسيحيين فى ذلك العصر ، وقضى أيضاً على عادة التنسك والخروج من الدنيا فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معاً .

وبالجملة فقد أتى الإسلام بنظام مضاد للنظام المسيحى فى ذلك العهد ، ملائم لحاجات الناس وهذا هو سر غلبته على الدين المسيحى .

ثم إن الإسلام أرجع الدين إلى حالته الطبيعية ولم يأت بشىء من تلك

العقائد ، المسيحية الفلسفية ، بل قال بكل وضوح : « لا إله إلا الله » وبذلك خلا الإسلام من ذلك الاعتقاد الذى قسم الدول الأوروبية ، والذى جعل أهل مصر وآسيا الصغرى فى حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية .

وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة إلى أهل الإسلام وهم يعلنون أنهم أهل التسامح مع مخالفيهم فى الدين لا يطلبون منهم إلا ضريبة يستعينون بها على إصلاح شؤونهم وشؤون الدولة الإسلامية ، ولقد بلغ الأمر بأحد الولاة إلى تثبيط دخول الذميين فى الإسلام بدلاً من أن يرغبهم فيه أو يكرههم عليه لأن إسلامهم يقلل من دخل بيت المال ، فزجره عمر بن عبد العزيز قائلاً : « إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » .

ومن هذا الوصف التاريخى الموجز يمكنكم أن تتصوروا كيف نضبت ينابيع الحياة فى الدولة البيزنطية ، وأنتم تعرفون كيف انتشرت عادة التنسك والتقشف مع أنها لم تقلل من فساد الأخلاق - ويمكنكم أن تدركوا كيف أن التَّبَعة الآسيوية اعتبرت ظهور الإسلام إيذاناً بنجاتهم وسعادتهم .

وأذكر أنى أيام كنت أدرس تاريخ الإسلام كان الأساتذة يقررون سرعة انتشاره من دون إيقافنا على أسبابه ، وغاية ما كانوا يذكرونه هو أن طبيعة العرب طبيعة حربية ، وأن خيولهم جيدة تكاد تسبق ظلالها !! مع أن الحقيقة أن الفتوحات العربية كانت على البغال ، إلا أن العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول ، لا تثقل الجندى المجاهد .

ثم إنهم فوق ذلك أتوا متشبعين بروح التسامح وذلك هو سر الانقلاب العظيم الذى أعطاهم مُلْك آسيا وإفريقيا ونصف أسبانيا .

وإذا كان ذلك كذلك أدركتم ما تبع هذه النهضة من الأعمال الجليلة .

أتى العرب بعقائد سهلة ملائمة للفطرة وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذى عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم ، وإنى ليخيل إلىَّ أنه كانت على أبصار مسيحيى القرون الوسطى غشاوة من تنسك منعتهم من إدراك الأشياء على حقائقها .

* * *

منزلة العلماء فى الإسلام

قال « آدم متز » [1] : « فى القرن الثالث الهجرى : صار الأدباء الذين نشأوا حول الخلفاء وفى قصورهم . أدباء من طراز جديد . يلمّون بكل شىء ويشبهون فى عصرنا الصحفيين غير المتخصصين الذين يتكلمون فى جميع الأمور . ولهذا نجد العلماء يُفرِّقون بين أنفسهم وبين الأدباء حتى قال ابن قتيبة : « مَن أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ، ومَن أراد أن يكون أديباً فليتسع فى العلوم » .

وكان صاحب العلوم الدنيوية يسمى كاتباً ، وكان يتميز عن العلماء فى لباسه ، فكان العلماء يلبسون الطيلسان ، وكانوا فى خراسان يظهرون متطلسين متحنكين . وكانت فارس مركز الكُتاب ، وكانوا فى المدينة شيراز يُرفعون على العلماء ، ولكن خراسان كانت جنة العلماء ، ولا يزال العلماء بها - إلى اليوم [2] - يتمتعون بجاه واحترام لا نظير لهما فى سائر البلاد .

ومن أمثلة ذلك : أن أحد العلماء الزهاد دخل خراسان . فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم يمسحون أرادنَه ، ويأخذون تراب نعليه ، ويستشفون به . وكان أصحاب البضائع من كل بلد يُخرجون بضائعهم وينثرونها ، ما بين حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك ، وهو ينهاهم حتى وصلوا إلى الأساكفة فجعلوا ينثرون ما عندهم وهى تقع على رؤوس الناس ، وخرج إليه صوفيات البلد بمسابحهن وألقينها إليه ، وكان قصدهن أن يلمسها فتحصل لهن البركة ، فكان يتبرك بهن ويُقْصد فى حقهن ما قَصدن فى حقه » .

ثم قال [3] : « وكان إذا مات العالِم كسر تلاميذه المحابر والأقلام ، وطافوا

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : ٢٨٤/١

(٢) توفى الكاتب عام ١٩١٧ (٣) المرجع السابق : ٢٩٧/١

فى البلد نائحين فى الصباح . فلما مات الجوينى (المتوفى عام ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) وكان خطيباً مشهوراً أيضاً ، كُسر منبره ، واشتركت نيسابور كلها فى حزن العلماء عليه ، فلم تفتح الأبواب فى البلد ، ووضعت المناديل على الرؤوس عاماً بحيث ما اجترأ أحد على أن يستر رأسه » [١] .

وقال « كارل بروكلمان » : « أعلن محمد على نفسه والياً على مصر بواسطة علماء الأزهر فى القاهرة ، صاحب السلطان الشرعى ، وكان الأزهر قد انتهى منذ قرون على أن يصبح مثابة الشرع والفقه فى نظر العالم الإسلامى ، ومهما يكن من أمر فقد كان الإسلام ولا يزال هو المهيمن على الحياة الدينية فى مصر » [٢] .

وفى (٢٦ نيسان ١٩٠٩) عقدت فى « سان استيفانو » جمعية وطنية فاتخذت بناء على فتوى من شيخ الإسلام قراراً بخلع السلطان ، وهكذا رفع إلى العرش أخوه « محمد رشاد » الخامس [٣] .

* *

● حماية الإسلام لعلماء الغرب وثواره :

قال « فازيلييف » : إن « توماس اليونانى » هرب إلى جوار الرشيد ، ثم بقى بعده فى بلاط المأمون ، وكان هربه سنة ٧٩٧ م حين كانت « إيرين » تشمل ابنها المغلوب « قسطنطين السادس » برعايتها ، وعقد « توماس » حلفاً مع المأمون ، وأصبح هذا الحلف شرعياً بتتويج « توماس » إمبراطوراً على يد « أيوب بطريرك أنطاكية » .

* *

---

(١) حكى ذلك « ويستنفلد » عن السبكي فى طبقاته : ٣/٢٥٧ - ٢٥٨ ، وهو عمل غير مشروع فى الإسلام . (الجبرى) .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية : ٤/١١ ، ترجمة منير بعلبكى ونبيه أمين فارس ، الطبعة الأولى .

(٣) المرجع السابق ص ٨١

● الروحانية والعالمية أساسان للحضارة :

وقال « اشبنجلر » : تنشأ الحضارة فى اللحظة التى تستيقظ فيها روح كبيرة ، وتستقل بذاتها عن الحالة النفسية البدائية التى توجد فيها الطفولة الإنسانية ، وهى تولد فى بقعة من الأرض محددة تمام التحديد ، ترتبط بها كارتباط النبتة بالتربة ثم تتفرع فى العالم .

فإذا تحولت هذه الروح بإمكاناتها إلى حضارة خاصة لشعب أو لغة أو توجه فنى وطموح سياسى رجعت إلى حالتها الأولى من الأحقاد والتطاحن واستخدام القوة للغلبة على موارد قوى الطبيعة المادية واستخدام الغرائز فى المتع الحسية .

وبقاء الحضارات يقتضى نزوعاً روحياً عن النوازع المادية ، واستعداداً نفسياً يكون أخلاقياً حقاً وكما قال « ألبرت اشفيستر » : يجب أن نكون متأهبين للعمل إيجابياً فى العالم والحياة . ويجب ثانياً أن نكون أخلاقيين .

وهذا ما قاله القرآن فى حضارته العالمية : ﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (١) ، ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٣) ، ﴿ فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٤) .

هذه صور من مبادئه العالمية الأخلاقية العملية . إلى جانب الارتباط الزمنى للرسالة الإسلامية منذ بدء الخليقة : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ (٥) .

* *

(١) هود : ٦١ (٢) القلم : ٤ (٣) الحجرات : ١٠

(٤) المائدة : ٤٨ (٥) الشورى : ١٣

● النداءات للعالمية :

فى الغرب تكتل يدعو إلى نظام عالمى يرتكز على الحضارة المادية والحوافز المادية ، ولكن الإسلام منذ الأزل يدعو إلى حضارة عالمية تقوم على التوحيد للّه رباً ، ووحدة المرسلين والرسالة فى المنهج الربانى الناجح فى كل مجتمع ارتبط بالوحى الذى خلق من البدو الحفاة ذوى حضارة ومدنية فكيف بمجتمعات أرقى من البدو ؟ إنه لا بد أن يكون أكثر نهوضاً بها ورفعاً لشأنها ، فقد ألغى الحدود والحواجز والتمايز الطبقى حينما أعلن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) ، وبالشريعة الإسلامية تنتظم أعمال البَشر فى اتجاه واحد يربط كل الناس باللّه ويربط كل سلوكياتهم وأعمالهم باللّه : « إنما الأعمال بالنيّات » ، ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلا لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، « إذا قامت القيامة على أحدكم وفى يده فسيلة فليغرسها » ، و« ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان ذلك فى ميزانه يوم القيامة » .

ومن منطلق السلوك البَشرى الملتزم لطاعة اللّه تتنزل رحمات اللّه للبشرية : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُواْ وَاتَّقُواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٤) .

* *

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) البينة : ٥

(٣) العنكبوت : ٦٤ (٤) الأعراف : ٩٦

● أثر الدين الإسلامى فى الإنجازات الحضارية :

فى دراسة علمية جامعية عن الخصائص الإسلامية فى دفع الإنسان إلى العمل الحضارى المتقن - ففضلاً عن إرضاء الله - نجد النتائج بالأرقام كالآتى :

١ - ٨٧ر٤٪ من أعضاء هيئة التدريس الجامعى يرون أن الحوافز الإيمانية الروحية لها دورملموس فى حفزهم على العمل ، ٦ر٣٪ من الأعضاء يرون الحوافز المادية هى المحركة للإنسان .

٢ - ٩٠٪ يرون أن الإيمان وراء الثبات فى وجه التخلف ومقاومة المعتدين ، والتحرر من الاستعمار .

٣ - ٧٩ر٣٪ يرون أن الإيمان عنصر حيوى وأساسى لتحقيق الأمن النفسى . وإشباع الحاجات الاجتماعية ، ٤٪ يضعون الاعتبار لتوفير الإمكانات المادية [١] .

* * *

(١) القبس فى ١٩٨٦/٢/٢

سمو التشريع الإسلامى

قال الفيلسوف الإنجليزى : برنارد شو » : لقد كان دين محمد - صلى الله عليه وسلم - موضع تقدير سام ، لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة ، وأنه الدين الوحيد الذى له مَلَكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، وأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ البشرية ، وأن رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالَم الحديث فسوف ينجح فى حل مشكلاته .

* *

● تكوين الذوق الحقوقى :

يقول الأستاذ الفرنسى « لامبير » مدرس القانون المدنى فى جامعة ليون بفرنسا مخاطباً تلاميذه العرب : إن لديكم كنزاً لا نظير له عندنا ، هو فقهكم الإسلامى ، وضرب مثالاً على ذلك نظرية « إساءة استعمال الحق » أو « التعسف باستعمال الحق » التى افتخر باستنباطها بعض فقهاء الغرب ، ثم قال : إن أحد زملائكم قد أثبت فى أطروحته التى حاز بها « درجة الدكتوراة » أن مصدر هذه النظرية إنما كان فى الفقه الإسلامى .

ثم قال « لامبير » : إن القانون المقارن الذى تدرسونه فى القانون الغربى له مكان مرموق عندكم باسم « علم الخلاف » ، والمؤلفات العربية حافلة بأدق النقد العلمى الحقوقى ، وبأمثلة بديعة من النقاش المنطقى والتحليل الناقد الذى لا يزيد قارئه علماً بموضوع البحث فحسب ، بل يربى فيه ذوقاً حقوقياً يندر أن يحصل على مثله فى كلياتنا الحقوقية .

* *

● الإجماع والقياس :

قال المستشرق الألمانى « جولد زيهر » : « سوف يرى - بلا شك - أن هذا الإجماع قد احتوى على ينبوع القوة التى تجعل الإسلام يتحرك ويتطور بكل حرية ، لأن هذا الأصل هو الذى يقدم العلاج الناجع تجاه غطرسة السلطة الشخصية ، وتعسف الكلمة التى لا حياة فيها » .

ويعلق على « القياس » - أحد مصادر الشريعة الإسلامية عند جمهور فقهاء المسلمين - فيقول : « إنه عبارة عن العقل الساهر على الشريعة الإسلامية وازدهارها الذى يدفع وصمة العقم فى قواعدها ، وتهمة الجمود فى طبيعتها » .

* *

● التشريع الغربى عالة على الإسلامى :

يقول المؤرخ الإنجليزى « ويلز » فى كتابه « ملامح تاريخ الإنسانية » : إن أوروبا مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية .

ويقول المؤرخ الفرنسى « سيديو » : إن قانون نابليون منقول عن كتاب فقهى فى مذهب الإمام مالك هو : « شرح الدردير على متن خليل » ، يعنى « سيديو » ما عدا النظام الربوى وقانون العقوبات والحدود الإسلامية .

* *

● محاولات التجهيل بقيمة الفقه الإسلامى :

هنالك محاولات مغرضة لتضليل دارسى القانون عن الشريعة الإسلامية وسموها على كل التشريعات الموجودة فى العالم أدت إلى تيه القانونيين فى الشرق والغرب ، وفى أحد المؤتمرات العلمية حول « الفقه الإسلامى » قام نقيب سابق للمحامين فى فرنسا يعلق على ما أسمعه فى المناقشة : أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يُحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامى ، وعدم صلوحه أساساً تشريعياً يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور .. وبين ما سمعناه الآن

فى المحاضرات ومناقشتها .. مما يثبت خلاف ذلك تماماً ، ببراهين النصوص والمبادىء .. إنه لشىء مثير للدهشة .

* *

● التوصية بالشريعة الإسلامية :

فى الوقت الذى كان فيه المسلمون - طبقاً لمعاهدة أتاتورك - مع الدول الصليبية الكبرى من إلغاء الخلافة والقانون الإسلامى فكان المسلمون يتباعدون عن الإسلام .. حتى مصر - والإخوان المسلمون وراء القضبان - حين استفتيت عن الدستور الذى تختاره ، قالت : الإسلام أساس الحكم ، فعمد وكيل بمجلس الشعب فى مطالع عام ١٩٧١ يقترح أن يقال : « الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى من مصادر التشريع » بينما رغبة الجمهور كانت صريحة فى المطالبة بأن يكون « الإسلام المصدر الرئيسى » وكتبت إلى الرئيس السادات يومها من داخل معتقل مزرعة طرة السياسى بذلك ، مع هذا النكوص فى البلاد الإسلامية كان المتخصصون فى القانون يطالبون بما يحاربه حكام المسلمين - ولا يزال كثيرون يحاربونه .

* *

● المؤتمر الدولى للقانون المقارن :

انعقد هذا المؤتمر فى مدينة « لاهاى » فى هولندا سنة ١٩٣٧ وكان من بحوثه بحثان قيمان :

١ - المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية . قدمه الشيخ محمد شلتوت .

٢ - استقلال الفقه الإسلامى ، ونفى كل صلة مزعومة بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى .

وبعد المناقشة سجل المؤتمر ما يلى :

١ - اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام .. لكل دول العالَم .

٢ - أنها حية قابلة للتطور .

٣ - أنها شرع قائم بذاتهٖ ليس مأخوذاً عن غيره .

* *

● مؤتمر المحامين الدولى :

وقد عقد فى « لاهاى » أيضاً فى سنة ١٩٤٨ ، واشترك فيه ٥٣ دولة من أنحاء العالَم ومختلف الديانات ، وضم جمعاً غفيراً من الأساتذة والمحامين اللامعين من مختلف الأمم والأقطار ، واتخذوا فيه القرار التالى :

« نظراً لما فى التشريع الإسلامى من مرونة ، وما له من شأن هام ، فيجب على جمعية المحامين الدولية أن تتبنى الدراسة المقارنة لهذا التشريع وتشجع عليها »

* *

● أسبوع الفقه الإسلامى :

وفى ٢ تموز سنة ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولى للحقوق المقارنة مؤتمراً للبحث فى الفقه الإسلامى ، ودعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كلية الحقوق العربية وغير العربية وكليات الأزهر وقد عقد فى كلية الحقوق بجامعة باريس فى فرنسا تحت اسم « أسبوع الفقه الإسلامى » .

وفى ختام المؤتمر أصدر المؤتمرون - بالإجماع - عدة قرارات تؤيد صلاحية الإسلام للمجتمع فى كل زمان ومكان .. ومن هذه القرارات ما نصه :

« إن اختلاف المذاهب الفقهية فى هذه المجموعة الحقوقية العظمى ، ينطوى على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الأصول الحقوقية ، ما هى مناط

إعجاب . وبها يتمكن الفقه الإسلامى أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها » [١] .

* * *

● حضارة العرب فى الجاهلية :

يقول المؤرخ العالمى « ويلز » فى « معالم تاريخ الإنسانية » عن بلاد العرب قبل سيدنا محمد ﷺ ما نصه :

« لقد كانت بلاد العرب منذ أزمان سحيقة ، وذلك عدا شريط اليمن الخصب فى الجنوب العربى - أرض بَدْوٍ رُحَّل ، ولم تكن هناك حتى مفتتح القرن السابع الميلادى أمارات على وجود أية قوة غير معتادة أو خطرة فى الصحراوات العربية ، إذ كانت حياة البلاد تسير على نمطها منذ أجيال طويلة ، فحيثما كانت هناك بقاع خصبة . أعنى حيثما كانت هناك عين أو بئر ... كان يعيش سكان زراعيون قليلو العدد فى مدن مسوّرة ،. محاذرة من البدو الذين يتجولون مع أغنامهم وماشيتهم وخيولهم فى الصحراء .

وكانت المدن الرئيسية تقوم على امتداد طرق القوافل الهامة ، وهى فى المنزلة الثانية من الرخاء . وكانت فى طليعتها « يثرب » بلداً يحتوى على ما يقرب من خمسة عشر ألف نسمة على حد الرواية ، ويجوز أنه كان فى « مكة » عشرين أو خمس وعشرون ألفاً . وكانت « يثرب » بلداً أفضل نسبياً من حيث المياه ، بها أحراش نخيل كثيرة . وكان سكانها من اليمانية . أى من رجال الأرض الخصيبة فى الجنوب ، أما « مكة » فهى مدينة من طراز آخر قائمة حول ينبوع ماء . وسكنها بدو حديثو الاستقرار » [٢] .

* * *

---

(١) عكرمة سعيد صبرى ، التحديث فى نظر الإسلام ص . ٢ ، ٢١ ، القبس ١٤٠٤ هـ (١٩٨٣ م) .

(٢) المستشرقون والإسلام ص . ٥٨ - ٥٨٢

● أثر الإسلام فى حياة العرب :

قال الفيلسوف الإنجليزى « توماس كارليل » : لقد أخرج الله العربى من الظلمات إلى النور بالإسلام ، فقد كانت فئة من جوالة العرب تجوب الفلاة منذ بدء العالم ، لا يُسمع لها صوت ، ولا تحس بها حركة ، فأرسل الله هذا النبى برسالته من عنده ، فإذا خمول الذكر قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعف قوة ، وما هو إلا قرن من هذا الحادث حتى أصبحت لدولة العرب قدم فى الهند وقدم فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام قروناً طويلة على نصف المعمورة [١] .

* *

● آثار الإسلام الاجتماعية :

قال « درمنجم » فى كتابه « حياة محمد » : وكان للدعوة المحمدية فى جزيرة العرب أثر عظيم ثابت فى تقدم الأسرة والمجتمع ، وفى تقدم الصحة أيضاً ، فقد حسُن بها مصير المرأة كما نرى فى فصل آت . وحرم بها الزنا والمتعة وجبلة الغرام ، ومنع بها إكراه القيان على البغاء لإثراء سادتهن .. والإسلام - وإن أباح الرق - نظَّم أحكامه ، فعدَّ فك الرقاب من الحسنات ومكفِّراً لبعض السيئات . قال النبى : « أيما رجل أعتق امرءاً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار » ، وقال النبى : « مَن لاءمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون ، واكسوه مما تكتسون ، ومن لم يلائمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى » ، ودعا أبو ذر بلالاً بـ « ابن الحبشية » معيراً ، فقال النبى : « يا أبا ذر ، إنك امرؤ فيك جاهلية » ، وقال النبى : « لا يقولن أحدكم : عبدى وأمتى ، ولكن ليقل : غلامى وجاريتى ، وفتاى وفتاتى » [٢] .

* * *

---

(١) هذا هو الإسلام ص ٦٩ (٢) حياه محمد - لدرمنجم - ص ٢٩.